ما قاله العارفون بالله

عن المعرفة بالله

الإمام الشيخ التجاني علي سيس

إمام المسجد الجامع بمدينة كولخ المحروسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله آخى بين الأرواح، وألف بينها قبل ظهور الأشباح، وعلمنا على لسان نبيه أن الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها إئتلف، وما تناكر منها اختلف، يقول الله تبارك وتعالى: (وإذ أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذياراهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى) فأجابوا بالباء التي بها كان ما كان، وبها يكون ما يكون إلى يوم اللقاء.

وصلى الله وسلم على سر الذات، ونور الذات، سيدنا محمد نور الوجود، ومدد الوجود، من لا وجود إلا وجوده، ولا نور إلا نوره، ولا مدد إلا مدده، صلاة تعرفنا بها إياه. يقول رب العزة: "كنت كنترا لم أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقا، فتعرفت إليهم، فبي عرفوني" وكلمة "فبي" عددها بالجملة 92، وهو عدد حروف اسم "محمد"، أي؛ فبمحمد عُرِف تبارك وتعالى. وعلى آله الأطهار، ووصحابته الأخيار، والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛

حضرات السادة الوزراء والأمراء والمدراء، أصحاب السعادة، حضرات الأئمة والمشايخ والمقدمين، حضرة السيد الشريف المنيف، العلامة الشريف عمر بن عبد العزيز، الذي يترأس هذه الجلسة المباركة الميمونة، مع إخوته الشرفاء الأكارم، أيها الإخوة والأخوات الوافدين من شتى بقاء الأرض لحضور المولد؛

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

يسرني أن ألتقي بهذا الجمع الغفير من الأحباب من أهل ساحل العاج في هذا المكان المبارك، وممن وفدوا من دول الجوار، للمذاكرة فيما بيننا في موضوع "المعرفة بالله"، والطريقة ـــ كما قيل ـــ إنما هي ذكر ومذاكرة. فنرجو من الله تعالى أن يفيدنا بما يسمعنا، ويسمعنا ما يفيدنا، في سيرنا اللامنتهي إليه، إنه مجيب من رفع الشكوى إليه، فبه أقول ـــ وما قولي إلا به منه وإليه؛

حقيقة المعرفة بالله

المعرفة هي: العلم؛ فكل علم معرفة؛ وكل معرفة علم؛ وكل عالم بالله عارف؛ وكل عارف عالم. وأما في اصطلاح القوم فالمعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته؛ ثم صدق الله تعالى في معاملاته: ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وأفاقه؛ ثم طال بالباب وقوفه، ودام بالقلب اعتكاف،ه فحظي من الله تعالى بجميل إقباله وصدق الله في جميع أقواله؛ وانقطع عنه هواجس نفسه؛ ولم يضع بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره؛ فإذا صار من الخلق أجنبياً ومن آفات نفسه بريا؛ ومن المساكنات والملاحظات نقياً؛ ودام في السر مع الله تعالى مناجاته، وحق في كل لحظة إليه رجوعه وصار محدثا من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره، يسمى عند ذلك عارفاً وتسمى حالته معرفة. وبالجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه.

. قاله الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري المتوفي سنة 465 هـــ رضي الله عنه وأرضاه ورحمه برحمته الواسعة.

وسئل القطب المكتوم سيدنا أحمد التجاني رضي الله عنه عن حقيقة المعرفة بالله تعالى فأجاب بقوله: المعرفة الحقيقية أخذ الله للعبد أخذا لا يعرف له أصلا ولا فصلا ولا سببا ولا يتعقل فيه كيفية مخصوصة ولا يبقى لـــه شعور بحسه وشواهده ومحواته ومشيئته وإرادته بل تقع عن تجلّ إلهي ليس له بداية ولا نهاية ولا يوقف له على حد ولا نهاية.

وقال أيضا في جواهر المعاني: أهل العرفان هم الغائبون في الله عن كل فان مشاهدون لجلال الله وجماله العالمون بصفاته وأسمائه.

وقال قطب العارفين، صاحب الفيضة التجانية، مولانا الشيخ ابراهيم إنياس: المعرفة هي رسوخ الروح وتمكينه في حضرة المشاهدة مع الفناء التام والبقاء بالله. فالعارف عند الصوفية من يرى الغير العين، أي؛ شهود الحق في الغير. والعارف عندي؛ من فني في الذات مرة وفني في الصفة مرتين أو ثلاثا وفني في الاسم مرة، وأثبت الوجود بالحقائق الثلاث، وأثبت الاسماء بالاسم. وهذا مقام دونه القتاد، وتفتت الأكباد، ولا ينال ببذلّ الأموال والأولاد، وصاحب هذا المقام كامل اليقظة، بالله وبحكمه وأحكامه راضيا بمجاري الأقدار كمال الرضا، مرضيا فيستحق قوله: "فادخلي في عبادي وادخلي جنتي".

وقال أيضا – رضي الله عنه – بأنها: الكشف عن أسماء الله وصفاته ونتيجتها مراقبة الله وإخلاص العمل له.

وقال أيضا: حقيقة المعرفة؛ شهود الكمال الذاتي: "ليس كمثله الشيء".

وقال أيضا: من عرف الله فليس له مع الخلق لذة ومن عرف الدنيا فليس لـــه في معيشته لذة ومن انفتحت عين بصيرته بهت و لم يتفرغ للكلام.

و قال الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي: اعلم أن المعرفة ضربان: معرفة العام، ومعرفة الخاص؛ أما الأولى فهي معرفة تحصل بالاستدلال وتسمى علم اليقين، وأما الثانية فعلى قسمين: عين اليقين ومعرفة حق اليقين، فالقسم الأول معرفة تحصل بواسطة الشهود وهي مقام خواص الأولياء، وأما القسم الثاني فهو معرفة تحصل للروح بعين المشاهدة وذلك يكون عند سلامة حواس القلب من جميع الكدورات النفسانية وتجرده عن التعلقات البدنية وصفائه عن الصفات البشرية فهناك تظهر للروح معرفة الله تعالى.

وقال الشبلي: العارف لا يكون لغيره لاحظاً، ولا بكلام غيره لافظاً، ولا يرى لنفسه غير الله تعالى حافظاً.

وقال بعضهم: المعرفة أن يميتك الحق عن نفسك، ويحييك به.

وقيل: العارف أنس بذكر الله فأوحشه من خلقه، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه، وذل له تعالى فأعزه في خلقه.

وقال أبو الطيب السامري: المعرفة طلوع الحق على الأسرار بمواصلة الأنوار .

وقيل: العارف فوق ما يقول، والعالم دون ما يقول .

وقال الجنيد: العارف من نطق الحقُّ عن سره وهو ساكت .

سئل يعقوب السوسي: هل يتأسف العارف على شيء غير الله عز وجل؟ فقال: وهل يرى غيره فيتأسف عليه؟ !

قلت: فبأي عين ينظر إلى الأشياء؟

فقال: بعين الفناء والزوال .

وقيل: العارف تبكي عينه ويضحك قلبه .

وقال الجنيد: لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤه البرُّ والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالمطر، يسقى ما يحب، وما لا يحب.

وقال أبو يزيد: إنما نالوا المعرفة بتضييع ما لهم والوقوف مع ماله.

قال ابن عطاء الله: المعرفة على ثلاثة أركان: الهيبة، والحياء، والأنس.

وقيل لذي النون المصري: بم عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي بربي، ولولا ربي لما عرفت ربي.

وقيل: العالم يقتدي به، والعارف يهتدي به .

سئل بعض المشايخ: بمَ عرفت الله تعالى؟ فقال: بلمعة لمعت بلسان مأخوذ عن التمييز المعهود، ولفظة جرت على لسان هالك مفقود يشير إلى وجد ظاهر ويخبر عن سر سائر هو بما أظهرهُ، وغيره بما اشكله ثم أنشد:

نطقتُ بلا نطق هو النطق إنـــــه ... لك النطق لفظاً أو يبين عن النطق

تراءيت كي أخفى وقد كنتَ خافياً ... وألمعتَ لي برقاً فانطفت بالبــــرق

وقيل عن صفة العارف: الذي لا يكدره شيء، ويصفو به كلُّ شيء.

وقال ذو النون: علامة العارف ثلاثة: لا يطفيء نور معرفته نور ورعه، ولا يعتقد باطناً من العلم ينقض عليه ظاهراً من الحكم، ولا تحمله كثرة نعم الله عز وجل، عليه على هتك أستار محارم الله.

وقال أبو سعيد الخراز: المعرفة تأتي من عين الجود وبذل المجهود.

سئل الجنيد عن قول ذي النون المصري في صفة العارف. كان ها هنا فذهب فقال الجنيد: العارف: لا يحصره حال عن حال، ولا يحجبه منزل من التنقل في المنازل، فهو مع أهل كل مكان بمثل الذي هو فيه يجد مثل الذي يجدون، وينطق فيها بمعالمها لينتفعوا بها.

محمد بن الفضل يقول: المعرفة حياة القلب مع الله تعالى.

سئل ابن السماك : متى يعرف العبد أنه على حقيقة المعرفة؟ قال : اذا شاهد الحق بعين اعتباره، فانيا عن كل ماسواه.

قال يحي بن معاذ رحمه الله : المعرفة : قرب القلب الى القريب، ومراقبة الروح للحبيب، والانفراد عن الكل بالملك المجيب .

يروى أن الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام : يا دواد اعرفني واعرف نفسك فتفكر داود فقال: إلهي عرفتك: بالفردانية، والقدرة، والبقاء وعرفت نفسي بالعجز والفناء.

قلت: ومعرفة الله سبحانه وتعالى بهذا المعنى هو أقصى غاية الناسكين، ومنتهى آمال السادة المتقين، وقد دفع القوم في سبيل ذلك الغالي والنفيس، وأفنوا فيه الأعمار، وغادروا من أجله الأقطار، وتكبدوا المشقات، وعانوا الويلات، حتى يظفروا به، ومع ذلك فقد رجع بعضهم خاوي الوفاض، دون أن يحقق شيئا من ذلك، لإخلاله ببعض الشروط، أو إخفاقه في الصبر على بعض الأمور، ويكفيك مثالا على ذلك قصة موسى مع صاحبه الخضر عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام، حيث لم يستطع موسى عليه السلام، ذلك النبي العظيم، الذي يعد من أولي العظم، إلا أنه لم يستطع الصبر على امتحان الخضر، فرجع منه دون أن يحظى بشيء من ذلك العلم اللدني الذي ذهب من أجله.

هذا وقد كان يعتبر هذا العلم من الكنوز النادرة، وصاحبه هو الكبريت الأحمر، إلا أنه بعد ظهور الختم التجاني فقد طوى المسافات، وقرّب المساحات، فانتشر العلم

بين أصحابه، وفشا بين أتباعه. ولما ظهر صاحب الفيضة التجانية مولانا شيخ الإسلام الشيخ إبراهيم بن الحاج عبد الله انياس، فاضت العلوم والمعارف، فشرب منها كل متعرض وغارف، حتى أصبحت المعرفة بالله تعم كافة الأقطار، ويتنعم بها كل المنتسبين إلى هذا القطب الهمام، وما أكثرهم في هذا الزمان، وهم الأئمة والعلماء، والسادة والأمراء، وهم في كل بلاد نجوما يقتدى بهم، ونباريس يهتدى بهم، وهم المتفوقون في كافة الفنون، والناجحين في جميع الشئون، فأكرم بهم وبشيخهم، رضي الله عنه وعنا به ونفعنا به آمين.

الطريق إلى المعرفة

قال صاحب الفيضة التجانية مولانا الشيخ إبراهيم انياس نقلا عن الإمام العلامة العارف بالله سيدى محمد اليدالى فى شرح خاتمة التصوف مانصه وقال بعضهم: أقرب الطرق إلى دخول الحضرة ذكر الله، لأن الاسم لايفارق مسماه ، فلا يزال الذاكرُ يذكر والحجب تتمزق شيئا فشيئا، حتى يقع الشهود القلبى لله، وحينئذ يستغنى عن الذكر بمشاهدة المذكور، ومرادهم بحضرة الله حيث أطلقت انكشاف الحجب، فتدخلها وأنت قاعد مكانك. الثانية قال فى شرح شهية السماع: لايقرب عبد إلى حضرته تعالى إلا أن يستحي منه حق الحياء، ولايصلح له ذلك إلا أن يحصل له الكشف ورفع الحجاب، ولا يصلح له ذلك إلا بملازمة الذكر، ولايصلح له مقام الإخلاص الكامل وهو شهود الأعمال أنها خلق الله تعالى إلا بمداومة

الذكر، ولاتخمد الأمراض الباطنية إلا به، ولا تنقطع الخواطر الشيطانية إلا به، ولا تضعف الخواطر النفسانية إلا به، وبمداومته يزول الهم والغم فى الدنيا فإنهما بقدر الغفلة عن الله، فلا يلومن العبد إلا نفسه إذا ترادفت عليه الهموم والغموم، فإن ذلك إنما هو جزاؤه بقدر إعراضه عن ربه، فمن أراد دوام السرور فليداوم على الذكر، وقد يقنع بعض المغرورين بمجلس الذكر صباحا ومساء مع الغفلة عن الله فيما بينهما، وذلك لا ينجع بالسالك إلى منازل القوم، وربما يحتج بحديث "إذا ذكر العبد ربه أول النهار ساعة وآخر النهار ساعة غفر له مابينهما" والمغفرة لاترقى فيها، وغايتها أن تلحق المذنب بمن لا يذنب ذلك الذنب لا أنها تلحقه بمن فعل الطاعات، فافهم ومراد القوم دوام الترقى مع الأنفاس فى المقامات وذلك بدوام ذكر الله، ثم إنهم لايرون أنهم قاموا بذرة واحدة من واجب حق الله تعالى اهـ منه بلفظه. انتهى من كاشف الالباس.

فالمعرفة عند القوم حصول العلم بالله تعالى ذاتا وصفاتا وأسماء وأفعالا، وهي أوجب الواجبات وأسنى الكرامات لأنها أصل الإيمان وغاية الإسلام. والمعرفة بالله هى منتهى غاية الكمال الانسانى ومكانة عالية المدرك غالية المثال فلا ينال مكانة المعرفة بالله إلا الذين جازوا المراحل كلها بقدم ثابت، وإيمان قوى وقلب سليم، فلا يكون العارف بالله عارفا له إلا إذا طوى المراحل فى سيره إلى الله، فمعرفة الانسان لله دونها كل معرفة، ولا يقوى أن يبلغ هذه الدرجة إلا الذى ابتدأ سيره على الأدب فاستقام بظهره وباطنه على الأدب، ونفذ الأمر والمراد فى أعماله وأقواله بغير كلفة ولا منة واستكملت صفاته تتمة نور الكمال الربانى فيترقى من كامل إلى أكمل،

واقتبست أخلاقه من الأدب نوراً فاستضاء بالهدى وأضاء بالحق وتغذت روحه من الحقائق قوتاً، فأحرم لله مخلصاً له الدين، وعمر قلبه بالايمان فأخلص النية ظاهراً وباطنا، فمن عرف الله حق معرفته سار فى هذا الكون وهو المثال لفضائل الصفات العالية، المؤدب فى قوله وعمله وحاله، المحب للخير لأخيه المؤمن كما يحبه لنفسه، المتوجه إلى الله طاهر القلب، مكتمل العقيدة، ثابت الايمان، راسخ القدم، سامي الذوق، مراده الله.

وقال شيخ الإسلام مولانا الشيخ إبراهيم انياس أيضا: أما معرفة كيفية السعى إليه فهى متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فى سائر قوله وفعله وحاله وخلقه بإقامة حقوق الله تعالى فى سر وعلانية، مخلصا لله تعالى من جميع الشوائب الدنيوية والأخروية ، وأن يكون ذلك لله تعالى تعظيما وإجلالا لله على بساط الرضى والتسليم والتفويض والاعتماد عليه تعالى فى كل شئ .

قال العلامة سيدي محمد بن المشري السباعي السائحي في كتاب "روض المحب الفاني، فيما تلقيناه من أبي العباس التجاني" حكاية عن القطب المكتوم، سيدي أحمد التجاني:

وأما ما هو حقيقة الشيخ الواصل فهو الذي رفعت له جميع الحجب عن كمال النظر إلى الحضرة الإلهية نظرا عيانيا، وتحقيقا يقينيا. فإن الأمر أوله محاضرة؛ وهو مطالعة الحقائق من وراء ستر كثيف، ثم مكاشفة؛ وهو مطالعة الحقائق من وراء ستر رقيق، ثم مشاهدة؛ وهو تجلي الحقائق بلا حجاب ولكن مع خصوصية، ثم

معاينة؛ وهو مطالعة الحقائق بلا حجاب ولا خصوصية ولا بقاء للغير والغيرية عينا وأثرا، وهو مقام السحق والمحق والدك وفناء الفناء.

فليس في هذا إلا معاينة الحق في الحق بالحق،

فلم يبق إلا الله لا شيء غيره فما ثم موصول وما ثم واصل

ثم حياة، وهي تمييز المراتب بمعرفة جميع خصوصياتها ومقتضياتها ولوازمها وما تستحقه من كل شيء ومن أي حضرة، كل مرتبة منها ولماذا وجدت وماذا يراد منها وما يؤول إليه أمرها، وهو مقام إحاطة العبد بعينه ومعرفته بجميع أسراره وخصوصياته، ومعرفة ما هي الحضرة الإلهية وما هي عليه من العظمة والجلال والنعوت العالية والعلية والكمال معرفة ذوقية ومعاينة يقينية.

فصاحب هذه المرتبة هو الذي تشق إليه المهامه في طلبه لكن مع هذه الصفة فيه كمال إذن الحق له سبحانه وتعالى إذنا خاصا في هداية عبيده وتوليته إرشادهم إلى الحضرة الإلهية.

توحيد العارفين

قال العلامة سيدي محمد بن المشري السباعي السائحي في كتاب "روض المحب الفاني، فيما تلقيناه من أبي العباس التجاني":

سئل رضي الله عنه (يعني الختم التجاني) عن توحيد العارفين والفرق بينه وبين توحيد المتكلمين، فأجاب رضي الله عنه: أما توحيد المتكلمين فهو دفع الشبه القادحة في صحة التوحيد من كل ما يوجب نقصا أو سلب كمال أو جهلا في وصف الباري سبحانه وتعالى. ودفع هذه كلها إنما هو بالحجج العقلية القائمة على المقدمات اليقينية. فأصحابه في تعب عظيم من كثرة توارد الشبه وما يصحبها من كثرة الوساوس والتخليط. وأما توحيد العارفين فهو عبادة إله واحد بالرضا والتسليم لحكم إله واحد ولا يعتمد في جميع أطواره إلا على الإله الواحد، ولا يتوجه بهمته وقلبه إلا إلى الإله الواحد، فيتبرأ من حوله وقوته للحول والقوة المتصف بهما إله واحد، ولا يحب إلا إلها وأحدا، ولا يشتاق في جميع مآربه إلا إلى إله واحد واحد، ويجعل مبدأ قصده وغاية مطلبه ووسط ما يسلكه بين المبدئي والغاية هو الإله الواحد.

وفي كل هذا بمفارقة الهوى ظاهرا وباطنا وعينا وأثرا، والبعد إلى الغاية القصوى من تلبيسات النفس والهوى والشيطان، ومتى وقع فيه ولو أقل قليل من متابعة الهوى، ولو مثقال ذرة أو هبئة فما وحد إلاها واحدا، ولا صفت له العبودية لإله واحد، ثم إذا هم له هذا التوحيد وتشيد له حصنه واستقر فيه وغرق في بحر الرضا والتسليم علما منه بأن الإله الواحد لا يصح الخروج عن حكمه، حلوه ومره، خيره وشره، ولا اختيار لأحد معه، فإن كان اختار معه كان إلها معه.

فمن صح له ما تقدم من الأوصاف المذكورة استراح من معاناة المقادير، وجلس على بساط النعيم والتنعم، لخلعه لحلل التعب مما كان فيه من نكد التدبير، فهناك جلس مع الله على بساط القرب والمؤانسة، فلا تسأل عما يجده من المنح والمواهب، وبلوغ الآمال ووجوه الرغائب، من العز والمجد الأقصى والمكارم التي لا تحد ولا تحصى.

فهذا هو توحيد العارفين الذي لما ذكره القطب مولاي عبد العزيز الدباغ رضي الله عنه لصاحبه العالم الكبير سيدي أحمد بن مبارك استراح من تعب ما كان فيه من دفع الشبه التي تتوارد على المتكلمين، وأما توحيد العارفين فلا تلحقه الشبه.

ثم قال رضي الله عنه: مثالها مثال شخصين أحدهما توغلت فيه أعضلت الداء، وكلما زال عنه شيء جاء أعظم منه، فلأجلها اعتنى بالبحث في كثرة علم الطب ومعرفة العلل وأصولها من أين نشأت ومعرفة الأدوية المزيلة لتلك العلل، وكيف تناولها كما وكيفا ووقتا وافرادا وتركيبا. فهو في تعب عظيم من معانات هذه العلوم، ومتى أخطأ في شيء منها وقع له الضرر وقد فاته أكثر مطالبه لاشتغاله بهذا العلم وفنونه. وأما الآخر فقد نشأ كامل الصحة والقوة، قد سلمه الله من جميع الآفات وعوارض البليات، ولم تقع عليه آفة قط ولا رآها بعينه فتغافل عن تعلم جميع علم الطب وعن جميع مقتضياته واوازمه.

فإذا لامه الأول بهذا قال له: جهلك بالطب عليك فيه ضرر عظيم. قال له الآخر: إنما يحتاج للطب أمثالك الذين توغلت فبهم العلل، وأما أنا فلا أعرف الداء فليست بي حاجة إلى الدواء.

وأما عن السؤال عن لماذا لم يظهروا هذا التوحيد في الكتب والدواوين حتى يعم نفعه؟

قال: الجواب إنهم ما كتموه وأن ذلك التوحيد هو الذي بعثت به الرسل كلها وهو الذي يظهر لعامة الخلق، وإنما ترك ودرست طريقه لإعراض عامة الناس عنه لميلهم إلى شقاشق علم الكلام والبحث في قواعده وأصوله بالحجج العقلية والمقدمات اليقينية، ظنا منهم أن تلك هي الغاية في التقرب إلى الله تعالى وكمال العلم به، وجهلوا أن ذلك هو غاية البعد عن الله والضلال.

فإن السبب الذي أوقع العامة في هذا مخالطتهم لعلوم أوائل الفلاسفة فوجدوهم قرروا في علومهم علم التوحيد الحق هو البحث في العلم الإلهي بالقواعد العقلية والمقدمات المنطقية، فصرفهم الله بذلك عن معرفة الحق ومثاله وعن التقرب بما يقرب إلى الله ومعرفة جلاله. وحيث كان الصحابة لم يخالطوا هذا العلم كانوا قائمين على توحيد الرسل الذي كان جنا ثماره وذوق حلاوة يانعه من صريح الأخبار الإلهية بما في كتب الله التي بعثها إلى خلقه مع رسله وما نطقت به رسله في تعليم العامة من العلم بالله ومعرفة عظمته وجلاله.

فلما دخل على الصدر الثالث علوم الفلسفة وسمعوا فيها في فن التوحيد شقاشق عربية تستحيلها نفوس أهل الفضول المعرضين عن الله تعالى. وكل من حصل منهم صال بها على العامة والجاهلين بها مدعيا أن الذي وصل إليه في رتبة العلم هو غاية القصوى في العلم بالله ومعرفة جلاله، ويصرحون على العامة أن من لا يعلمها كأنه لا يعلم شيئا من العلم. فتتبعتهم نفوس العامة لشدة ميلها إلى الفضول حيث رأوا لهم التعظيم البالغ الغاية في قلوب العامة والملوك والأمراء بسبب تتابع الأعصار على هذا خلفا عن سلف من غير معارض ولا زاجر، نسي علم التوحيد الذي بعث به الرسل وصار السالكون على توحيد الرسل المعرضون على توحيد الفلاسفة هم المسمون بالصوفية والعارفين. وصار السالكون على توحيد الفلاسفة هم المسمون بأهل علم الكلام.

وأما التنزل إلى فن علم الكلام من العارفين كالأشعري والسنوسي وأمثالهما رضي الله عنهم، إما أراد الرفق بالعامة لما كان توحيد الرسل لا يستجيبون له إلا بالسيف، تنزلوا لهم باقرار حجج عقلية يدركونها في نفوسهم ليستجيب بذلك لأمر الله باختيارهم. فرأوا أن ذلك خير من السيف لكون صاحبه لا يدخل في الدين إلا قهرا وجبرا. فهذا هو السبب الذي حملهم على التنزل إلى فن علم الكلام. وأما وحدة الوجود فسيأتي له رضي الله عنه الكلام عليها إن شاء الله تعالى.

انتهى كلامه رضي الله عنه، من كتاب روض المحب الفاني.

هذا وقد قسم الإمام الغزالي رحمه الله في الإحياء التوحيد أربع مراتبَ؛ إلى لب وإلى لب اللب، وإلى قشر وإلى قشر القشر.. إلى أن قال: فالرتبة الأولى من التوحيد أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين، والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام، والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار، والرابعة: أن لا يرى في الوجود إلا واحدا وهي مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد لأنه من حيث لا يرى إلا واحدا فلا يرى نفسه أيضا وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانياً عن نفسه في توحيده بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه والخلق.

وقال محمد بن موسى الواسطي: جملة التوحيد أن كل ما ينطق به اللسان أو يشير إليه البيان من تعظيم أو تجريد أو تفريد فهو معلول والحقيقة وراء ذلك.

ويقول سيدنا وشيخنا أحمد التجاني رضي الله عنه : ما دمت ترى أنك موجود والله موجود فثم اثنان أين التوحيد؟ لا توحيد إلا إذا كان التوحيد بالله من الله إلى الله والعبد لا مدخل له فيه ولا مخرج، وهذا لا يصح إلا من طريق الفناء.

إذا تقرر انفراد الحق بالوجود فلا تتعد همتك إلى غيره إذ هو مفقود. وقال ابن عجيبة في شرح قوله في الحكم "لا تتعد نية همتك إلى غيره فالكريم لا تتخطاه الآمال": إذا تعلقت همتك أيها المريد بشيء تريد تحصيله فردها إلى الله ولا تتعلق

بشيء سواه لأنه سبحانه كريم على الدوام ونعمه سحاء على مر الليالي والأيام والكريم لا تتخطاه الآمال وهو يحب أن يسئل فيجيب السؤال.

ضرورة صحبة عارف

اعلم أن المريد لا ينتفع بعلوم الشيخ وأحواله إلا إذا انقاد له الانقياد التام، ووقف عند أمره ونهيه، مع اعتقاده الأفضلية والأكملية، ولا يغني أحدهما عن الآخر، كحال بعض الناس يعتقد في الشيخ غاية الكمال ويظن أن ذلك يكفيه في نيل غرضه، وحصول مطلبه، وهو غير ممتثل ولا فاعل لما يأمره الشيخ به، أو ينهاه عنه. وإليك أقوال بعض العلماء العارفين بالله في ضرورة الصحبة وفوائدها؛

قال في إيقاظ الهمم: قال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنه في كتابه: أعلم أنه لا يقرب طالب الوصول إلى الله تعالى شيء مثل جلوسه مع عارف بالله إن وجده ثم قال الجلوس مع العارف بالله أفضل من العزلة والعزلة أفضل من الجلوس مع العوام الغافلين والجلوس مع العامي الغافل أفضل من الجلوس مع الفقير الجاهل، وكما إن العارف بالله يجمع بين المريد ومولاه بنظرة أو بكلمة كذلك الفقير الجاهل بالله ربما أتلف المريد عن مولاه بنظرة أو بكلمة فما فوقها.

هذا وفي قصة النبي موسى عليه السلام مع الخضر دليل قوي على ضرورة صحبة شيخ عارف، والتسليم له، والانقياد لأمره من أجل الوصول إلى الغاية المرجوة،

والحصول على المعارف السنية. وقال الأمير العارف بالله عبد القادر الجزائري في كتابه "المواقف" :

فهذا موسى عليه السلام، مع جلالة قدره وفخامة أمره، طلب لقاء الخضر عليه السلام وسأل السبيل إلى لُقيِّه، وتجشم مشاق ومتاعب في سفره، كما قال: {لقدْ لقينا مِن سفرنا هذا نَصباً} [الكهف: 62] ومع هذا كله لَمَّا لم يمتثل نهياً واحداً، وهو قوله: {فلا تسألْني عن شيء حتى أُحدِثَ لَكَ منه ذِكراً} [الكهف: 70] ما انتفع بعلوم الخَضِر عليه السلام، مع يقين موسى عليه السلام الجازم أن الخضر أعلمُ منه بشهادة الله تعالى، لقوله تعالى عندما قال موسى عليه السلام: لا أعلم أحداً أعلم مني: [بلى، عبدنا خَضِرٌ] وما خصَّ عِلْماً دون علم، بل عمَّم.

وكان موسى عليه السلام أولاً ما علم أن استعداده لا يقبل شيئاً من علوم خضر عليه السلام. وأما خضر عليه السلام، فإنه علم ذلك أول وهلة فقال: {إنَّك لن تستطيعَ معيَ صبراً} [الكهف: 67]. وهذا من شواهد علمية الخضر عليه السلام فلينظر العاقل إلى أدب هذين السيدين.

قال موسى عليه السلام: {هل أتَّبِعُك على أن تُعلِّمَنِ مِمّا عُلِّمتَ رشداً} [الكهف:66] أي: هل تأذن في اتباعك، لأتعلم منك ؟ ففي هذه الكلمات من حلاوة الأدب ما يذوقها كل سليم الذوق.

وقال خضر عليه السلام: {فإنِ اتَّبعتَني فلا تسْألْني عن شيء حتى أُحدثَ لكَ منه ذِكراً} [الكهف: 70] وما قال: فلا تسألني، وسكت، فيبقى موسى عليه السلام

حيران متعطشاً، بل وعده أنه يُحدث له ذكراً، أي: علماً بالحكمة فيما فعل، أو ذكراً: بمعنى: تذكراً.

يقول ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه:

وينبغي لمن عزم على الاسترشاد، وسلوك طريق الرشاد، أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق، سالك للطريق، تارك لهواه، راسخ القدم في خدمة مولاه فإذا وجده فليمتثل ما أمر، ولينْتهِ عما نهى عنه وزجر. [مفتاح الفلاح" ص30.]

وقال أيضاً: (ليس شيخك مَنْ سمعت منه، وإنما شيخك من أخذت عنه، وليس شيخك من واجهتك عبارته، وإنما شيخك الذي سَرَتْ فيك إشارته، وليس شيخك من دعاك إلى الباب، وإنما شيخك الذي رَفَع بينك وبينه الحجاب، وليس شيخك من واجهك مقاله، إنما شيخك الذي نهض بك حاله. شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى. شيخك هو الذي ما زال يجلو مرآة قلبك، حتى تَجلَّتْ فيها أنوار ربك، أنهضك إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، وما زال محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه، فزجَّ بك في نور الحضرة وقال: ها أنت وربك) ["لطائف المنن" ص167.]

وقال أيضاً: (لا تصحب من لا يُنهِضُكَ حاله، ولا يدلك على الله مقاله)

.وقال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى:

(كنت في مبدأ أمري منكراً لأحوال الصالحين، ومقامات العارفين، حتى صحبت شيخي (يوسف النساج) فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات، فرأيت الله تعالى في المنام، فقال لي: يا أبا حامد، دع شواغلك، واصحب أقواماً جعلتُهم في أرضي محل نظري، وهم الذين باعوا الدارين بحبِّي، قلت: بعزتك إلا أذقتني بَرْدَ حُسْنِ الظن بهم، قال: قد فعلتُ، والقاطع بينك وبينهم تشاغُلُك بحب الدنيا، فاخْرُجْ منها مختاراً قبل أن تخرج منها صاغراً، فقد أفضتُ عليك أنواراً من جوار قدسي. فاستيقظتُ فرحاً مسروراً وجئت إلى شيخي، فقصصت عليه المنام، فتبسم وقال: يا أبا حامد هذه ألواحنا في البداية، بل إنْ صحبتني ستكحل بصيرتك بإثمد التأييد... الخ) ["شخصيات صوفية" لطه عبد الباقي سرور ص154. توفي سنة 1382هـ.

وقال أيضا: يحتاج المريد إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة فمن لم يكن له شيخ يهديه، قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة. فمن سلك سبل البوادي المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرةِ التي تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر، فمعتَصَمُ المريد شيخُهُ، فليتمسك به"] (الإحياء" ج3/ص65.[

ولله در القائل:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقراء هُمُ السلاطيمُ والسادات والأمرا

فاصحبهمُ وتأدَّب في مجالسهمْ   وخل حظــك مهما قدموك ورا

وأما السؤال عن طلب الشيخ هل هو فرض على كل فرد فرد أو على البعض دون البعض؟ وما السبب؟ فقد أجاب عنه مولانا القطب المكتوم والخاتم المحمدي المعلوم، سيدي أحمد التجاني، كما نقله عنه سيدي محمد بن المشري في "روض المحب الفاني"، حيث قال:

الجواب أن طلب الشيخ في الشرع ليس بواجب وجوبا شرعيا يلزم من طلبه الثواب ومن عدم طلبه العقاب. فليس في الشرع شيء من هذه، ولكنه واجب من طريق النظر مثل الظمآن إذا احتاج إلى الماء وإن لم يطلبه هلك، فطلبه عليه لازم من طريق النظر، وطريق النظر في هذا ما قدمناه من كون الناس خلقوا لعبادة الله والتوجه إلى الحضرة الإلهية بالإعراض عن كل ما سواها.

وعلم المريد ما في نفسه من التثبط والتثبيط عن النهوض إلى الحضرة الإلهية، وعلم عجزه عن مقاومة نفسه بما يريده منها من الدخول في الحضرة الإلهية بتوفية الحقوق والأدب، وعلم أنه لا ملجأ له من الله ولا منجى إن أقام مع نفسه متبعا لهواها معرضا عن الله تعالى، فإنه بهذا النظر يجب عليه طلب الشيخ الكامل. وهذا الوجوب النظري أمر زضعي طبيعي ليس هو من نصوص الشرع، إذ ليس في نصوص الشرع إلا وجوب توفية القيام بحقوق الله ظاهرا وباطنا على كل فرد فرد من جميع العبيد ولا عذر لأحد في ترك ذلك من طريق الشرع، ولا عذر له في غلبة الهوى عليه، وعجزه عن مقاومة نفسه.

فليس في الشرع إلا وجوب ذلك وتحريم ترك ذلك بوجوب العقاب عليه. فهذا ما كان في الشرع ولا شيخ يجب طلبه إلا شيخ التعليم الذي يعلم كيفية الأمور الشرعية التي يطلب فعلها من العبيد أمرا ونهيا وفعلا وتركا. فهذا الشيخ يجب طلبه على كل جاهل لا يسع أحدا تركه، وما وراء ذلك من الشيوخ لا يلزم طلبه من طريق الشرع لكن يجب طلبه من طريق النظر بمنزلة المريض الذي أعضلته العلة وعجز عن الدواء من كل وجه وانعدمت الصحة في حقه، فنقول إن شاء البقاء على هذا المرض بقي كذلك، وإن طلب الخروج إلى كمال الصحة قلنا له يجب عليك طلب الطبيب الماهر الذي له معرفة بالعلة وأصلها وبالدواء المزيل لها وكيفية تناوله كما وكيفا ووقتا وحالا والسلام.

الأدب

الكاملين العارفين المحققين

اتفق المشايخ الكاملين و العارفين المحققين على أن الأدب في طريق أهل الله تعالى آكد كل أمر و جامعٌ لكل خير و بر، و نصوا على أن من لازم سلوك سبيله في جميع ذلك وصل واتصل، ومن حاد عن نهجه انقطع و انفصل، وذلك لأن الطريق آداب كلها، لكل وقت أدب و لكل حال أدب و لكل مقام أدب.

قال صلى الله عليه و سلم " أدبني ربي فأحسن تأديبي ثم أمرني بمكارم الأخلاق".

والأدب هو تهذيب الظاهر و الباطن ، فإذا تهذب ظاهر العبد و باطنه صار أديبا. قال الشيخ محي الدين رضي الله عنه "الأدب جماع الخير".

وقال ابن عطاء: " الأدب الوقوف مع المستحسنات".

قيل له: ما معنى ذلك؟

قال: أن تعامل الله سرا وعلانية بالأدب، فإن كنت كذلك كنت أديبا وإن كنت أعجميا. ثم أنشد :

إذا نطقت جاءت بكل مليحة وان سكتت جاءت بكل مليح

وما أحسن قول بعضهم فى الأدب:

الأدب أن يؤدب العبد ظاهره وباطنه ، أما ظاهره فبالشريعة بأن يتبع السنة، قولا وفعلا، وأما باطنه فبالحقيقة بأن يرضى بما يرد عليه من الله ويتلقاه بالقبول، ويرى أن الكل نعمة عليه من الله تعالى، إما عاجلة وإما آجلة، فالعاجلة بلوغ النفس محبوبها عاجلا، والآجلة كأنواع المضار و المكاره، فإنه يثاب عليها آجلا ويحط بها عنه من خطيئاته، فهي نعمة بهذا الاعتبار، وصاحب هذا الأدب هو المخصوص برؤية النعم في طيّ النقم، فيرى نعم الله تعالى عليه ظاهرة وباطنة.

وجاء في الحديث عن معاذ رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب".

وقال سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه: "الأدب في العمل علامة قبول العمل".

وقال عبد الله بن المبارك رضي الله عنه: "من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة".

وقال ذو النون المصري رضي الله عنه: "إذا خرج المريد عن حد استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء".

أما الأدب مع الشيخ فاعتقاد كماله وأنه أهل للشيخوخة والتربية لجمعه بين شريعة وحقيقة وبين جذب وسلوك وأنه على قدم النبي صلى الله عليه وسلم وثانيها تعظيمه وحفظ حرمته غائباً وحاضراً وتربية محبته في قلبه وهو دليل صدقه وبقدر التصديق يكون فمن لا صدق له لا سير له ولو بقي مع الشيخ ألف سنة ويرحم الله سيدي محمداً الشرقي حيث قال من لا صدق، ما عند باش ينفق من لا حقق ما جاب إيمارايا بابا.

وأما الآداب مع الأخوان كما ذكره ابن عجيبة: حفظ حرمتهم غائبين أو حاضرين فلا يغتاب أحداً ولا ينقص أحداً فلا يقول أصحاب سيدي فلان كمال وأصحاب سيدي فلان نقص أو فلان عارف أو فلان ليس بعارف أو فلان ضعيف وفلان

قوي أو غير ذلك فهذه عين الغيبة وهي حرام بالأجماع لا سيما في حق الأولياء فإن لحومهم سموم قاتلة كلحوم العلماء والصالحين فليحذر المريد جهده من هذه الخصلة الذميمة وليفر ممن هذا طبعه فراره من الأسد فمن أولع بهذا فلا يفلح أبداً فالأولياء كالأنبياء فمن فرق بينهم حرم خيرهم وكفر نعمتهم. وقد قال بعض الصوفية من كسره الفقراء لا يجبره الشيخ ومن كسره الشيخ فقد يجبره الفقراء.

ومن بين ألاداب أيضا إسداء النصح إليهم، وحسن معاشرتهم، والتعامل معهم على مبدأ: "وتعاونوا على البر والتقوى".

يقول مولانا شيخ الاسلام الحاج ابراهيم

الحيرة والتسليم

وهو الإيمان الكامل الذي لا يعتمد صاحبه التقليد ولا يستكفي بالاستدلال فقط وإنما يعتمد نور البصيرة في شهود الحضرة الربانية الأزلية الأبدية ويراقبها في كل تصرفاته وحركاته وسكناته .

وقديما قال أحد الأكابر: لا يعرف الله إلا من تعرّف إليه ولا يوحّده إلا من توحّد له ولا يؤمن به إلا من لطف به ولا يصفه إلا من تجلى لسره ولا يخلص له إلا من جذبه إليه ولا يصلح له إلا من اصطنعه لنفسه.

وقيل: لو أراد الخلق تنزيه الخالق إلا بلسان العجز ما استطاعوا قال صلى الله عليه وسلم:

"لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك" [رواه مسلم وأصحاب السنن].

وقد روى الترمذي في نوادر الأصول:

{أن الله تعالى احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه}

ولذا يقول الجنيد: انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة، وقال ذو النون :غاية العارفين التحير.

هذا وقد قال الله تعالى: (ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد).

وقال: (وما قدروا الله حق قدره)

وقال: (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما)

وقال: (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء)

وقال: (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا)

وقال: (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم يترل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)

وقال: (سبحان ربك رب العزة عما يصفون).

لهذا فالمخلوق أيا كان لا يحد الخالق ولا يدركه باعتبار كنه ذاته وتجرده عن النعوت والتعينات بل الذي يدرك الله ويقدره حق قدره هو الله تعالى وحده لا غيره والعقول الآدمية ضعيفة محدودة لا تدرك من التوحيد والمعرفة إلا افتقار الصنعة إلى صانعها.

وعليه فإن الله لا يؤاخذ الإنسان بنا عسر على عقله تصوره أو فهمه، ويكفي أن يسلم ويؤمن به، وفي هذا المعنى قال الأبوصيري:

لم يمتحنا بما يعيا العقول به　　حرصا علينا فلم نرتب و لم نهم

من هنا يتبين لنا أن المعرفة من فعل القلب لا من فعل العقل.

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: العجز عن درك الإدراك إدراك.

وفي ذلك يقول العلامة محمد قال ولد متالي:

الخوض في إدراكه إشـــراك　　والعجز عن إدراكه إدراك

والعجز عن إدراكه الصدّيق　　قال هو الإدراك والتحقيق

الحجاب

روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن لله سبعين ألف حجاباً من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سُبُحَات وجهه كل من أدركه بصره".

قلت: لقد أجمع أهل الله على أن هذه الحجب إنما هي باعتبار العبد، لا باعتبار الحق تبارك وتعالى، والدليل على ذلك أن وجه الله تبارك وتعالى لم يحجبه شيء، فهو مطلع على الخلق دائما اطلاعا مباشرا منذ بدء الخليقة، و لم يحترق منها شيء. فلو كانت الحجب له هو، لاحترق العالم بنظرة واحدة منه كما في الحديث. فافهم ذلك!

قال الشيخ الأكبر الإمام محيي الدين ابن عربي في كتابه الحجب: اعلم أيها المحب كائنا من كان أن الحجب التي بينك وبين محبوبك كائنا من كان ليس شيئا سوى وقوفك مع الأشياء لا للأشياء، كما يقول من لم يذق طعم الحقائق، وإنما وقف مع الأشياء لضعف الإدراك، وهو عدك النفوذ، وهو المعبر عنه بالحجاب، وهو عدم.

والعدم لا شيء ولا حجاب، ولو كانت الحجب صحيحة لكان من احتجب عنك احتجبت عنه. والعرف ما نذكره إلا من كان الحق سمعه وبصره، وهو الذي يعرف ما يعبر عنه بالحجاب.

واعلم أنك إذا تفرغت لأمر ما بالكلية فبالضرورة تقف معه، وذلك الوقوف هو حجابك فتتخيل أن الوقوف معه حجبك، وليس كذلك والوقوف مع الخلق

حجابك عن الحق، والوقوف مع الحق حجابك مع الخلق. وهذا من باب التوسّع والإيناس، كما ورد في الكتاب والسنة من ذكر الحب النورانية والظلمانية وعلى هذا التوسع ثبتت الحجب.

قال في إيقاظ الهمم: الحق ليس بمحجوب عنك إنما المحجوب أنت عن النظر إليه إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر وكل حاصر لشيء، فهو له قاهر وهو القاهر فوق عباده، قلت: الحق تعالى محال في حقه الحجاب فلا يحجبه شيء لأنه ظهر بكل شيء وقبل كل شيء وبعد كل شيء فلا ظاهر معه ولا موجود في الحقيقة سواه، فهو ليس بمحجوب عنك وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه لأعتقادك الغيرية وتعلق قلبك بالأمور الحسية فلو تعلق قلبك بطلب المولى، وأعرضت بالكلية عن رؤية السوى، لنظرت إلى نور الحق ساطعاً في مظاهر الأكوان، وصار ما كان محجوباً عنك بالوهم في معد الشهود والعيان.

وفي هذا المعنى قال ابن عطاء الله: "ما حجبك عن الحق وجود موجود معه إذ لا شيء معه وإنما حجبك عنه توهم موجود معه".

قال أحد شعرائهم:

وما احتجبت إلا برفع حجابها ... ومن عجب أن الظهور تستر

وقال آخر:

لقد ظهرت فلا تخفي على أحد ... إلا على أكمه لا يبصر القمرا

لكن بطنت بما أظهرت محتجباً ... وكيف يعرف من بالعزة أستترا

وقال في إيقاظ الهمم أيضا: ثم إحتجابه تعالى في حال ظهوره، مما يدلك على وجود قهره، كما أشار إليه في الحكم بقوله:

"مما يدلك على وجود قهره سبحانه إن حجبك عنه بما ليس بموجود معه".

فاحتجب عنهم بشيء ليس بموجود، وهو الوهم، والوهم أمر عدمي مفقود، فما حجبه إلا شدة ظهوره وما منع الأبصار من رؤيته إلا قهارية نوره، فتحصل إنفراد الحق بالوجود وليس مع الله موجود، قال تعالى:

(كل شيء هالك إلا وجهه)، وأسم الفاعل حقيقة في الحال.

وقال تعالى: (هو الأول والآخر والظاهر والباطن)

وقال تعالى: (فأينما تولوا فثم وجه الله)

وقال تعالى: (وهو معكم أينما كنتم)

وقال تعالى: (وإذ قلنا لك أن ربك أحاط بالناس)

وقال تعالى: (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)

وقال تعالى: (إأن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله).

وقال صلى الله عليه وسلم: "أفضل كلمة قالها شاعر كلمة لبيد؛

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل".

وقال صلى الله عليه وسلم: "يقول الله تعالى يا عبدي مرضت فلم تعدني، فيقول: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول الله: أما أنه مرض عبدي فلان فلم تعده، فلو عدته لوجدتني عنده. ثم يقول: يا عبدي إستطعمتك فلم تطعمني، ثم يقول: أستسقيتك فلم تسقني...الحديث".

فدل الحديث على أن هذه الهياكل والأشخاص خيالات لا حقيقة لها فهي أشبه شيء بالظلال.

وقال مولانا شيخ الإسلام، الشيخ إبراهيم انياس في كتاب "كاشف الألباس" :

وأما معرفة كيفية زوال هذا الحجاب فهو السعى فى قطع الحظوظ والشهوات وترك تعظيم نفسها والسعى فى جلب مصالحها وقطع دفع مضارها بالزهد فيها بالكلية لكن بلطف ورفق . وأما معرفة أصول الحجاب فهو كثرة الأكل والشرب وملاقاة الخلق وكثرة الكلام وكثرة المنام ودوام الغفلة عن ذكر الله تعالى . وأما السعى والجد فى قطع تلك الأصول فهو الجوع والعطش بالرفق ودوام الانقطاع عن ملاقاة الخلق ودوام الصمت مطلقا إلا فيما قل من ضرورياته ، ومداومة السهر بالرفق ، ومداومة ذكر الله تعالى بالقلب واللسان دائما بأى ذكر . ثم إن الأذكار التى بها زوال الحجاب منها كليات وهى التى تقطع الحجاب عن الروح من أى أمر كان ، ومنها تفصيليات وهى التى لاتقطع إلا حجابا واحدا من نوع واحد . أما الكليات فهى لاإله إلا الله ، او الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو سبحان الله

والحمد لله ، أو الله أكبر ، أو بسم الله الرحمن الرحيم، أو الله الله الله ، أو الله لا إله إلا هو الحى القيوم . وأما التفصيليات فهى سائر الأسماء الحسنى ، وكل اسم يذهب بجزء من الحجاب ولا يتعدى للجزء الآخر . والله تعالى الموفق ا هـ كلامه الجدير أن يكتب بذوب الذهب ، قلت : ومن أراد شيئا زائدا على ماذكر هنا مما يقطع الحجاب فعليه بملازمة رجاله ، فقد قال السيد العربى بن السائح رضى الله عنه : إن فى جواهر المعانى طرقا عديدة كلها موصلة على الله تعالى . قلت : وما هو مكتوم أكثر من ذلك ، ولكن سائق السعادة يسوق أناسا ، والصارف الإلهى يصرف آخرين .

الماء منهمر والأرض معشبة أقام فيها مريد الخير أو رحلا

الدخول إلى الحضرة المقدسة

قال ابن عجيبة: الحضرة مقدسة متزهة مرفعة لا يدخلها إلا المطهرون، فحرام على القلب الجنب أن يدخل مسجداً الحضرة، وجنابة القلب؛ غفلته عن ربه.

قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا)، أي؛ لا تقربوا صلاة الحضرة وأنتم سكارى بحب الدنيا وشهود السوي، حتى تتيقظوا وتتدبروا ما تقولون في حضرة الملك، ولا جنباً من جماع الغفلة وشهود السوى، حتى تتطهروا بماء الغيب

الذي أشار إليه الحاتمي رضي الله عنه كما في الطبقات الشعرانية في ترجمة أبي المواهب بقوله:

تطهر

توضأ بماء الغيب إن كنت ذا سر ... وإلا تيمم بالصعيـــــد أو الصخر

الفجر

وقدم إما ما كنت أنت إمامـــــه ... وصل صلاة الظهر في أول العصر

فهذي صــــلاة العارفين بربهم ... فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر

يعني تطهر من شهود نفسك بماء الغيبة عنها بشهود ربك، أو تطهر من شهود الحس بشهود المعنى، أو تطهر من شهود عالم الشهادة بماء شهود عالم الغيب، أو تطهر من شهود السوى، بماء العلم بالله فإنه بغيب عنك كل ما سواه، وإذا تطهرت من شهود السوى تطهرت من العيوب كلها... إلى آخر كلامه.

وقلت في هذا المعنى: قديما

وجــدت مرادي بعد نفيي لغيره ... هو الواحد القريب من كل خلقه

فلا شيء غير الحق في كل موقع ... تأمل مــريد الوصل تفز بوصـــله

آيات قرآنية، وأحاديث نبوية في بيان المعرفة

قال تعالى:

اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالأرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ و يُسَبِّحُ لَهُ و فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأبْصَـٰرُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

قال بعض أهل العلم:

وقد بيّن سبحانه هذه الحقيقة بأنّ له تعإلى نوراً عامّاً تستنير به السماوات والارض فتظهر به في الوجود بعدما لم تكن ظاهرة فيه، فمن البيّن أنّ ظهور شيء بشيء يستدعي كون المُظْهِر ظاهراً بنفسه و(الظَّاهِرُ بِذاتِهِ المُظْهِرُ لِغَيْرِهِ هُوَ النُّورُ)، فهو تعإلى نور يظهر السماوات والارض بإشراقه عليها، كما أنّ الانوار الحسّيّة تُظْهِر الاجسام الكثيفة للحسّ بإشراقها عليها غير أنّ ظهور الاشياء بالنور الإلهيّ عين وجودها وظهور الاجسام الكثيفة بالانوار الحسّيّة غير أصل وجودها.

ونوراً خاصّاً يستنير به المؤمنون ويهتدون إليه بأعمالهم الصالحة وهو نور المعرفة الذي سيستنير به قلوبهم وأبصارهم يوم تتقلّب فيه القلوب والابصار فيهتدون به إلى سعادتهم الخالدة فيشاهدون فيه شهود عيان ما كان في غيب عنهم في الدّنيا،

ومثّل تعالى هذا النور بمصباح في زجاجة في مشكاة يشتعل من زيت في نهاية الصفاء فتلالا الزجاجة كأ ّنها كوكب درّيّ فتزيد نوراً على نور، والمصباح موضوع في بيوت العبادة التي يسبّح الله فيها رجال من المؤمنين لا تلهيهم عن ذكر ربّهم وعبادته تجارة ولا بيع.

فهذه صفة ما أكرم الله به المؤمنين من نور معرفته المتعقّب للسعادة الخالدة، وحرّمه على الكافرين وتركهم في ظلمات لا يُبصرون، فخصّ من اشتغل بربّه وأعرض عن عرض الحياة الدنيا بنور من عنده، وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشاءُ لَهُ الْمُلْكُ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ.

وقال الأخفش في معنى قوله تعالى: | "وما قدروا الله حق قدره"[الأنعام: 91] أي ما عرفوه حق معرفته، وللآية وجهان في التفسير:

وانظر يا أخى لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: ((من عرف نفسه فقد عرف ربه)).

قال محي الدين ابن عربي معلقا على هذا الحديث: أشار – صلى الله عليه وسلم – بذلك أنك لست أنت، ــ بل ــ أنت هو بلا أنت: لا هو داخل فيك ولا هو خارج منك، ولا أنت خارج منه ولا أنت داخل فيه؛ ولا بذلك أنك موجود وصفتك هكذا أبدًا: غني به. إنك ما كنت قط ولا تكون، لا بنفسك ولا فيه ولا معه، ولا أنتْ فانٍ ولا موجود. أنت هو، وهو أنت، بلا علّة من هذه العلل. فإن عرفتَ وجودك بهذه الصفة فقد عرفتَ الله، وإلا فلا.

وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن دعامة البيت أساسهُ، ودعامة الدين المعرفة بالله تعالى، واليقينُ والعقل القامع فقلت: بأبي أنت وأمي ما العقل القامع؟ قال الكف عن معاصي الله، والحرص على طاعة الله". أخرجه الإمام الديلمي.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ذاق طعم الايمان من رضي بالله ربا، والاسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا".

قال شاعرهم:

طلعت شمس من أحب ليلا -----فاستنارت فما لديها غُروب

ان شمس النهار تغرب ليلا___ وشُموس القلوب ليست تغيب

دعوى انقطاع التربية في القرون السالفة ورد صاحب الفيضة عليها

إن مزاعم انقطاع التربية في أيامنا هذه ليست جديدة، فقد قال بها بعض الناس قديما ولا يزال بعض الأذناب يرددها رغم الحجج الدامغة التي دحض بها علماؤنا مزاعمهم، والبراهين القاطعة التي ردوا بها على أوهامهم وأغاليطهم. بل وقد ذهب البعض إلى القول بانقطاء الولاية، وغير ذلك، وقد تكلم مولانا شيخ الإسلام،

صاحب الفيضة التجانية الشيخ إبراهيم بن الحاج عبد الله انياس عن ذلك في كتاب كاشف الإلباس بإسهاب، وسننقل لكم هنا كلامه ملخصا؛

قال: قال سيدى زروق فى تأسيس القواعد مانصه: قال شيخنا أبو العباس الحضرمى رضى الله عنه: ارتفعت التربية بالاصطلاح، ولم يبق إلا الإفادة بالهمة والحال، فعليكم باتباع الكتاب والسنه من غير زيادة ولا نقصان الخ ما سيأتى قريبا، وهذا الكلام يفهمه من لا ذوق له ولا علم ولا صدق بأن التربية انقطعت انقطاعا كليا، وذلك فى المائة التاسعة، ولم يرد ذلك ولا شيخه، وإنما مراده كما قال ابن عجيبة العلامة ، شارح الحكم فى إيقاظ الهمم ، ونصه : فإن قلت قد قال الحضرمى: قد انقطعت التربية بالاصطلاح وما بقى إلا الهمة والحال ، فعليكم بالكتاب والسنة، قلت: لم يقصد الحضرمى انقطاعها على الأبد. وحاشا الحضرمى من أن يتحكم على الله ويعجز قدرته، فما أراد أن فى زمانه مدعين كثيرين، فحذر أهل زمانه منهم، ومعرفة الحضرمى وزروق رضى الله عنهما تنافى هذا القصد، وعلى تقدير صدورها منهما فليسا لمعصومين، فكل كلام يرد ويقبل إلا كلام صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم، وقد وجد بعد الحضرمى رجال كانوا من أهل التربية النبوية بالحال والمقال والهمة لايمكن عددهم، وهم موجودون فى زماننا هذا، مشهورون كنار على علم، قد هدى الله على أيديهم خلقا كثيرا، وخرج على أيديهم من الأولياء مالا يعلمهم إلا منْ منَّ الله عليه بمعرفتهم اهـ منه بلفظ مؤلفه. ومما يؤيد صاحب الإيقاظ أن القولة صدرت منهما فى القرن التاسع وقبل بزوز الختم التجانى حامل راية التربية، ولا يشك فى كونه مربيا من له أدنى تصديق

أوتسليم، وكذلك الشيخ (السيد المختار الكنتي) ومن تخرج على يديهما من الرجال الكمل الذين بلغوا مبلغ الشيوخ المربين المرقين

وذكر شيخنا ووسيلتنا إلى ربنا الختم التجاني رضى الله عنه مايدل على أن فى طريقته وتلامذته مشائخ التربية فى قوله الثابت عنه ، ونصه كما فى الجامع: إذا فتح الله على أصحابي فالذى يجلس منهم عندى فى البلد الذى أنا فيه يخاف على نفسه من الهلاك ، فقال له بعض أصحابه : منك أو من الله ؟ فأجابه : من الله من غير اختيار مني ، ذكر هذا فى يوم الأحد الثاني من شهر الله شعبان عام 1224 ثم قال فى يوم الاثنين : الخوف المذكور هو عليّ من أذن له من أصحابي فى التصرف والتربية للخلق ا هـ المراد بلفظه .

ونص كلام سيدى زروق كما فى تأسيس القواعد: خاتمة، قال شيخنا أبو العباس الحضرمى رضى الله عنه: ارتفعت التربية بالاصطلاح ولم يبق إلا الإفادة بالهمة والحال، فعليكم باتباع الكتاب والسنة من غير زيادة ولانقصان وذلك جار فى معاملة الحق والنفس والخلق، فأما معاملة الحق فبثلاث: إقامة الفرائض، واجتناب المحرمات، والاستسلام للحكم. وأما معاملة النفس فبثلاث: الإنصاف بالحق، وترك الانتصار لها، والحذر من غوائلها فى الجلب والدفع والرد والقبول والإقبال والإدبار. وأما معاملة الخلق فبثلاث: توصيل حقوقهم لهم، والتعفف عما فى أيديهم، والفرار مما يغير قلوبهم إلا فى حق واجب لامحيد عنه، وكل مريد مال لركوب الخيل أو آثار المصالح العامة ، أو اشتغل بتغيير المنكر فى العكموم أو التوجه للجهاد دون غيره من

الفضائل أو معه حال كونه فى فسحة من ، أو أراد استيفاء الفضائل أو تتبع عورات إخوانه وغيرهم أو متعللا بالتحذير أو عمل بالسماع على وجه الدوام أو أكثر الجمع والاجتماع لا لتعلم أو تعليم أو مال لأرباب الدنيا بعلة الديانة أو أخذ بالرقائق والدقائق دون المعاملة، وما ينبه عن العيوب، أو تصدى للتربية من غير تقديم شيخ أو إمام أو عالم، أو اتباع كل ناعق وقائل بحق أوباطل من غير تفصيل لأحواله، أوإستهان منتسبا لله وإن ظن عدم صدقه بعلامة أو مال للرخص أو التأويلات، أو قدم الباطن على الظاهر، أو اكتفى بالظاهر عن الباطن، أو أتى من أحدهما بما لايوافق عليه الآخر، أو اكتفى بالعلم عن العمل، أو بالعمل عن الحال والعلم، أو بالحال لاعنهما، ولم يكن له أصل يرجع إليه فى علمه وعمله وحاله وديانته من الأصول المسلمة فى كتب الأئمة ككتب ابن عطاء الله فى الباطن، وخصوصا التنوير، ومدخل ابن الحاج فى الظاهر، وكتاب شيخه ابن أبى جمرة ومن تبعهما من المحققين، فهو هالك لانجاة له، ومن أخذهما فهو ناج مسلم إن شاء الله، والعصمة منه والتوفيق.

" وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: عليكم أنفسكم — الآية ، فقال : إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، وإعجاب كل ذى إرأى برأيه فعليك بخويصة نفسك " وقال عليه الصلاة والسلام فى صحف إبراهيم " وعلى العاقل أن يكون عارفا بزمنه ، ممسكا للسانه ، مقبلا على شأنه ، وعلى العاقل أن يكون له أربع ساعات : ساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين ينصرونه بعيوبه ويدلونه على ربه ،

وساعة يخلى فيها بين نفسعه وبين شهواتها المباحة " أو كما قال : رزقنا الله ذلك وأعاننا عليه ، ووفقنا ، وصحبنا بالعافية فيه ، فإنه لاغنى لنا عن عاقبته ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ن وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

من تأمل كلامه بنفسه من أوله إلى آخره عرف وجه المراد، ولذا قال العارف بالله السيد العربي بن السائح: والمراد بالتربية فى هذا المحط هو التربية بالاصطلاح الذى أحدثه من بعد أهل القرون الثلاثة، وهى التى ذكر الشيخ زروق عن بعض أشياخه أنها انقطعت، وتابعه على ذلك المحقق اليوسى رحمه الله تعالى، وليس المراد عندهم أن التربية بمعنى الإرشاد بالكتاب والسنة وتلقين الذكر ونحوه، مما يزيح الباطل من النفس، ويقطع العلائق والعوائق عنها بسبب استعانتها على ذلك بمدد الشيخ وهمته على حسب مايأذن له من حضرة الله فى سره، أو حضرة رسوله صلى الله عليه وسلم يقظة أو مناما قد انقطعت، حاشا أهل الله من ذلك، وانظر الذهب الإبريز، انتهى كلامه بلفظه .

قلت : والآيات القرآنية والأحاديث النبوية فيها إشارات وتصريحات فى التبشير بهذه الطائفة الظاهرين على الحق ولم تخص بزمان دون زمان ، ولامكان دون مكان ، وقال تعالى {وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون } (سورة الأعراف : 181) قال الشيخ العلامة العارف بالله سيدى الصاوى فى حاشيته على قول الجلال: وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم كما فى الحديث : أى وهو

قوله صلى الله عليه وسلم " أى وهو قوله صلى الله عليه وسلم " لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى أن يأتى أمر الله " . وعن معاوية قال وهو يخطب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لاتزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك " وهذه الطائفة لاتختص بزمان دون زمان ، ولامكان دون مكان ، بل هم فى كل مكان وفى كل زمان ، فالإسلام دائما يعلو ولايعلى عليه ، وإن كثر الفساق وأهل الشر فلا عبرة بهم ولا صولة لهم ، وفى هذا بشارة لهذه الأمة المحمدية بأن الإسلام فى علو وشرف وأهله كذلك إلى قرب يوم القيامة حتى تموت حملة القرآن والعلماء ، وينزع القرآن من المصاحف وتأتى الريح اللينة فيمكوت كل من كان فيه مثقال ذرة من الإيمان ، ولايكون هذا الأمر إلا بعد وفاة عيسى عليه الصلاة والسلام اهـ . قلت : وفاة عيسى لاتكون إلابعد أن يقتل الدجال ويعيش أربعين عاما . كما تكررت فى ذلك الأحاديث ، ولا يأتى الدجال إلا بعد المهدى بسبع سنين على رأس مائة ، وفى رواية " لاتزال طائفة بالمغرب ، يعنى مقام الختمية والكتمية لأنه محل الأسرار والكتم ، وانظر الفتوحات وانظر كتابة الذى سماه " عنقاء مغرب فى ختم الأولياء وشمس المغرب " انظر البغية ، وقال تعالى : {ثلة من الأولين 39 وثلة من الآخرين }(سورة الواقعة :39-40) . وروى ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الثلتان من أمتى " انظر الجواهر الحسان ، وفى نسيم الرياض لشهاب الدين الخفاجى عند شرحه لحديث " خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم بعد كلام فلا ينافيه حديث " أمتى كالمطر لايدرى الخير فى أوله أم

فى آخره " فإن هذا من واد ، وذلك من واد آخر ، وهذا إشارة إلى أنه قد يجئ فى الأمة من ينفع الناس نفعا عظيما لم يتيسر لغيره ممن سبقه ، وهذا بالنظر لأفراد مخصوصة ، وذلك بالنظر لمجموع العصر وشتان مابينهما ، ولذا عبر بالقرن ، انظر نسيم الرياض

وقد قال شيخنا ووسيلتنا وقوت أرواحنا وممدنا ، القطب الغوث الخاتم المحمدى فى قوله تعالى {وثلة من الآخرين }(سورة الواقعة :40) هم أصحابنا، انظر بعين الإنصاف تجد له تمام الوراثة حتى صارت فى الأمة الثلتان، ثلة لجده وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثلة له وهم أصحابه رضى الله عنه ، وبقى من الإشارات ما أحجدم قلمى عن كتبه .

وفى السر أسرار دقاق لطيفة   تراق دمانا جهرة لو بها بحنا

وبهذا تعلم أن انقطاع مدد النبى صلى الله عليه وسلمك أو انتقاص نور نبوته لايقوله من له أدنى مرتبة من مراتب الإيمان .

وقال شيخنا رضى الله عنه كما فى الجامع والجواهر : اعلم أنه كان صلى الله عليه وسلم يلقى الأحكام العامة للعامة فى حياته : يعنى إذا حرم شيئا حرمه على الجميع . وإذا افترض شيئا افترضه على الجميع ، وكذلك سائر الأحكام الشرعية الظاهرة ، ومع ذلك كله كان صلى الله عليه وسلم يلقى الخاصة للخاصة،

وكان يخص ببعض الأمور بعض الصحابة دون بعض وهو شائع ذائع فى أخباره صلى الله عليه وسلم ، فلما انتقل إلى الدار الآخرة وهو كحياته فى الدنيا سواء ، صار يلقى إلى أمته الأمر الخاص للخاص ولا مدخل للأمر العام للعام ، فإنه انقطع بموته صلى الله عليه وسلم وبقى فيضه للأمر الخاص للخاص ، ومن توهم أنه صلى الله عليه وسلم انقطع جميع مدده على أمته كسائر الأموات فقد جهل رتبة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأساء الأدب معه ، ويخشى عليه أن يموت كافرا إن لم يتب من هذا الاعتقاد. ا هـــ منه بلفظه.

الطريقة التجانية والسير نحو المعرفة

إن طريقة سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه كغيرها من طرق أهل الله، هدفها هو إيصال المريد إلى الله تبارك وتعالى، والأخذ بيده أثناء سلوكه حتى يدخل الحضرة الإلهية. هذا هو دأب كل الطرق، إلا أن الطريقة الأحمدية المحمدية التجانية تميزت عن سائرها بكثرة بركاتها، وقوة شعاعها، ودوام أنوارها، وكيف لا وهي طريقة ختم الأولياء، ناهيك عن البشائر والذخائر التي انطوت عليها، والتي بشر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا أبي العباس رضي الله عنه.

هذا وبعد تفجّر ينابيع المعارف التجانية، وفيضان عيونها، على يد صاحبها رضي الله عنه، هرع الناس إليه، وأقبلوا عليه، ودخلوا أفواجا أفواجا في الطريقة على يديه، حتى أقرّ العدو قبل الصديق بأن هذا هو صاحب الفيضة المشار إليه. ولما كان

هو صاحبها بحق، فقد ربى ورقى، وأفنى وأبقى، وصفى ونقى، حتى أدخل الجميع والجميع إلى حضرة معبودهم، وأوقفهم على مولاهم، وكان ذلك همه وشغله الشاغل، فقد قال رضي الله عنه:

ولُمّةُ قصدي فيهمُ أنْ أسُوقَهُمْ إلى حضرة المولى الكريم إلهنا

هذا وقد نظف الطريقة التجانية من جميع الشوائب والبدع، ودافع عنها أمام المغرضين الضالين المضلين، كما رسم لنا طريقا بينا في التربية الروحية، من سار عليه وصل دون عناء. وقال رضي الله عنه عن هذه الطريقة: "إن تركيب ورد هذه الطريقة وحده يربي، لأنه مركب من الإستغفار، والصلاة على النبي، والهيللة. فالاستغفار؛ معناه التخلي عن الذنوب والرذائل، والصلاة على النبي؛ التحلي بالفضائل، ولا إله إلا الله؛ التجلي، حيث يتجلى الله تبارك وتعالى على لسان عبده بقوله؛ لا إله إلا الله، أو إلا أنت، أو إلا أنا".

فانظر هذا الكلام تعرف أنه لا يمكن أن يصدر إلا عن عارف متحقق، وعلامة مدقق، رضي الله عنه وأرضاه.

وأما عن تفاصيل ما تدور عليه التربية في طريقنا فقد أورد ذلك بشكل وافي في كتابه "كاشف الإلباس" حيث قال:

ومدار التربية التجانية دائرة على قطبين : الأول إقامة الصلوات الخمس بشروطها. والثانى الصلاة على النبى آناء الليل وأطراف النهار بنية امتثال الأمر والتعظيم

والإجلال والمحبة، وهذا بعد التزام الورد اللازم الذى يصح به قوام تجانيتك. قال الشيخ الأجل والقدوة المبجل أبو المواهب السيد العربى بن السائح كما فى البغية مانصه: ومدار التربية والتزكية فى طريقتنا هذه المحمدية الشريفة المرضية على إمامة الورد الأصلى المعلوم الذى لايصح الدخول فيها بدونه لأحد من الخصوص ولا من العموم وكذا توابعه من الأكار المشمولة باللزوم معه وهى الوظيفة المعروفة وذكر الهيللة بعد عصر يوم الجمعة بالمحافظة فى جميع ذلك على الشروط المشروطة والآداب التى هى بغاية الحسن ونهاية الكمال منوطة وآكد الشروط وأعظمها المحافظة على الصلوات الخمس بآدابها على الحد المحدود لها شرعا بقدر الإمكان واستكمال شروطها وآدابها ، وتمام جميع مالها من الأركان ، ثم عمارة مايقدر على عمارته من الأوقات والساعات بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم خصوصا بصلاة الفاتح لما أغلق التى هى من أسمى الذخائر وأسنى البضاعات على طريق المحبة والشكر والاعتماد على الفضل المحض الذى ليس إلا عليه فى بساط التحقيق المعول من غير التزام خلوة ولا كثرة مجاهدة ولا غير ذلك مما اصطلح عليه فى التربية من بعد الصدر الأول إذ هذه هى طريقة سيدنا رضى الله عنه التى سلكها وأمره بالتسليك بها سيد الوجود ومنبع الإمداد والجود صلى الله عليه وسلم . وفى جواهر المعانى أنه صلى الله عليه وسلم بعد ما اعلم سيدنا رضى الله عنه بأنه هو الواسطة بينه وبين الله تعالى والممد له على التحقيق ، وصرح له بأنه هو كفيله ومربيه دون غيره من مشائخ الطريق ، وأخبره أنه لامنة لواحد منهم عليه ، لأن جميع مايصله من الله تعالى فعلى يده صلى الله عليه وسلم بواساطته ومنه إليه ، قال دخول فى

هذه الطريق الأحمدية وجذبه جاذب العناية إلى الانخراط فى له فى وصيته التى أوصاه بها : الزم هذه الطريقة من غير خلوة ولا اعتزال عن الناس حتى تصل مقامك الذى وعدت به وأنت على حالك من غير ضيق ولا حرج ولاكثرة مجاهدة ا هـ .

ويرحم الله تعالى العارف البوصيرى رضى الله عنه حيث قال فى داليته :

والفضل ليس يناله متوسـل بتورع حـرج ولا يتزهد

إن قيل ذاك هو الدواء فقل لـه كحل الصحيح خلاف كحل الأرمد

يمشى المصرف حيث شاء وغيره يمشى بحكم الحجـر مشى مصفد

وقال فى الجواب الشافى : فلم يبق لمن ساقه سائق السعادة إلى الدخول فى هذه الطريق الأحمدية وجذبه جاذب العناية إلى الانخراط فى سلك أهل هذه السلسلة المحمدية ، وأهلهالله تعالى بفضله بمشاهدة هذه الخصوصية العظمى ، وأوقعه بجوده على هذا الكتر الأعظم والذخر الأسمى ، إلا أن يلقى القياد إلى هذا الأستاذ الأعظم. ويختم على بابه ويعكف على أعتابه على طريق المحبة والتسليم وسلب الإرادة له والتحكيم ، ويداوم على ورده المحمدى الشريف بالمحافظة التامة على شروطها المشروطة ، والوقوف بغاية الجهد عند حدوده المضبوطة حتى يأذن الله تعالى له بالفتح وهو على حاله من غير خلوة ولامجاهدة ولا غير ذلك من وجوه الرياضات المعروفة فى اصطلاح من بعد الصدر الأول ، فإنه إن داوم عليه على الوجه الموصوف إما أن يفجأه الفتح أو يهجم عليه هجوما ، وإما أن يمن الله تعالى عليه برفع الحجاب عن عينمى قلبه فيصير يجتمع بروحانية الشيخ رضى الله عنه أو

روحانية النبى صلى الله عليه وسلم ، فتكون تربيته بطريق الاستفاضة من أحدهما أو منهما معا {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} (سورة المائدة : 54) وما فى جواهر المعانى من اشتراط استحضار صورة الشيخ رضى الله عنه أو صورة النبى صلى الله عليه وسلم حال ذكر الورد يشير إلى هذا المعنى لمن قدر على ذلك ، وقد بسط الكلام فى ميزاب الرحمة الربانية فى بيانها ، وإما أن يقيض الله له أخا فى الطريق يقوم بأعباء تربيته ، يشهده الله تعالى سر خصوصيته ، ويزيل بينه وبينه حجاب بشريته ، فيسير به إلى الله تعالى فى سره وعلانيته ا هـ منه بلفظه.

ومن كان فتحه على الوجوه المذكورة يكون نوره تاما ، لأن الفتح بحسب المتبوع كما قال الشيخ زروق : فتح كل أحد ونوره على حسب فتح متبوعه ونوره ، فمن أخذ عن نصوص الكتاب والسنة ، ففتحه ونوره تام إن تأهل لأخذه منهما ، ولكن فاته نور الاقتداء وفتحه ، ولذلك تحفظ الأئمة عليه حتى قال ابن المدينى رحمه الله : كان ابن مهدى يذهب لقول مالك ، ومالك يذهب لقول سليمان بن يسار ، وسليمان يذهب لقول عمر بن الخطاب ، فمذهب مالك إذا مذهب عمر رضى الله عنه . وقال الجنيد رحمه الله : من لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء ويأخذ أدبه عن المتأدبين أفسده من اتبعه ، قال الله تعالى : {قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى}(سورة يوسف :108) الآية ، وقال عز من قائل {ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله}(سورة الأنعام :153) الآية، فافهم. ولا بأس أن نورد هنا بعض أشعارنا فى هذا المحط لما اشتملت عليه من الإشارات

التي تربي الصادق ، بعضها في حق السالك ، وبعضها في حق المجذوب ، فمن ذلك قولنا :

فدع عنك المغانى والغوانى   ودع عنك الموائد والمبانى
وصاحب كل قرم حاز جمع الشر   يعة والحقيقة غير وان
أخا ورع وزهد ليس يلفى   له هم يزيد على التفان
وحاذر من هوى نفس وحاذر   أخا ميل له مر الأوان
وملكه القياد وأنت تدرى   بأن ما فوقه فى الشأن ثان
تحقق أنه قد دك جهرا   وأوصله المقدس بالتدانى
وقربه وقدسه ونادى   لهْ بالإذن مقول كل دان
ليهنئك الوصول متى تراه   ورؤيته أعز لدى العيان
صـلاة الله يصحبهـا سلام   على المختـار من تال وثان

ولنا أيضا : مراتب الفتح لدى الاحباب
تركك ما سواك بلا ارتياب

فلا ينبغى للواصلين تصدر   قبيل وجود الإذن فالسر يستر
ويعجبنى الصمت الطويل فإنه   دليل على العرفان والحال مخبر
ولا خير فى التعبير فى كل محفل   قد انتقل الإسراس من حيث يجهر
رعانا إله العرش بالسـر سـره   عليه صـلاة الله فهو المـدبر

ومن أراد شيئا زائدا على هذا فعليه بمصاحبة الرجال ، وخدمة أهل الكمال .

هكذا أورد رضي الله عنه وعنا به آمين.

نفحات الأنوار، من أقوال بعض أهل الله الكبار

إنّ تجلّي نور شمس الذات الإلهيّة في مرآة قلب السالك إلى الله، اللاهث وراء الحقّ، هذا النور قد طرد أنوار الزُّهرة والقمر والشمس، ورمي بهنّ في هوّة العدم الحالكة. حيث يمّحي كلّ وجود ونور؛ كما في قوله تعإلى: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ. ولانّ هذه القيامة عند السالك إلى الله، هي واقعة، لا محالة، وهي صورة للقيامة الكبري، فإنّه إذا ظهرت علاماتها ساطعة، تلاشت أنوار الوجود الخيإليّ المجازيّ للكائنات، وذابت في وهج إشعاع نور ذات الله المطلقة، وبالظهور المطلق للحقّ تعإلى، تقوم القيامة، ويفني كلّ وجود غير وجوده المقدّس، وما كان آجلاً عند غيره، أصبح عاجلاً عنده.

قال في الإيقاظ: علامة كمال العارف وآدابه في الطلب وفي البسط والقبض وفي المنع والعطاء ومن جملة العطاء ما يعطيه الحق سبحانه عباده من الخيرات في مقابلة أعمالهم الصالحات.

ولما كانت شمس النهار إذا ظهرت لم تشاهد النجوم فكذلك شمس المعرفة إذا أشرقت أفنت الآثار والرسوم ولم يبق إلا الحي القيوم.

قيل:

فلما استبان الصبح أدرج ضوؤُه   بإسفاره أضواءَ نور الكواكب

وقيل أيضا:

لم يبق بيني وبين الحق تبيـــاني	ولا دليلٌ ولا آياتُ برهــــان
هذا تجلى شموس الحق نائـــرةً	قد أزهرت في تلاليها بسلطان
لا يعرف الحق إلا من يُعرِّفُـــه	لا يعرف القِدَمي المحدَث الفاني
لا يُستدل على الباري بصنعته	رأيتم حدثا ببني عن ازمــــان
هذا عبارة أهل الانفراد بـــــه	ذوي المعارف في سر وإعلان

4 كلام الشيخ أحمد التجاني في بعض المشاهدات

قال القطب المكتوم، سيدي أحمد التجاني في معنى الحديث "ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسع به ..إلخ":

"حتى أحبه" معناه: أن محبة الله للعبد هو إفاضة محبة ذاته المقدسة عليه، فهي غاية الغايات؛ وإليها ينتهي سير كل سائر، من وصلها كملت له مطالب الدنيا والآخرة. قال: حتى أحبه، يعني؛ أفيض عليه محبة ذاتي على حد قوله تعالى: (يحبهم ويحبونه)، فلولا محبته سبحانه وتعالى لهم ما وصلوا إلى محبة ذاته.

وقوله "فإذا أحببته كنت سمعه الخ" يشهد العبد من نفسه قوة إلهية كأنه هو الذات المقدسة بجميع صفاها وأسمائها، كأنه هو وليس هو، ولكنه سبحانه وتعالى أفاض عليه من أنوار صفاته وأسمائه لعلو مقامه، إنما يحمله ما لا يحمله جميع الخلق من

الثقل حتى قال بعض العارفين: من كشف له عن ذرة من التوحيد حمل السماوات والأرضين على شعرة من أجفان عينيه لأنه نهض في هذا المقام بالقوة الإلهية، فهو ينظر بالله، كأن ذاته ذات الله تعالى، ويسمع بالله، وعلامة النظر والسمع بالله ففي النظران ينظر الوجود كله من عرشه إلى فرشه من حيث أن لا يخفى منه ذرة واحدة ويستوي أمرها فيما كان خلفه وأمامه ويمينه وشكاله وفوقه وتحته، يرى ذلك في الآن الواحد دفعة واحدة ويراه كالجوهر الفرد الذي لا يقبل القسمة فلا تختلط عليه المرئيات وإن اختلفت أحوالها وأوضاعها، حركاتها وألوانها، كلها يراها على ما هي عليه دفعة واحدة في الآن الواحد في كل جهة من جهاته فلا تختلط عليه ذرة واحدة. وسبب هذه الرؤية أن بصر الروح قد انفتح، فذا انفتح بصر الروح في ذاته طالع جميع الأكوان والعوالم فلا تخلط عليه الرؤية، فهذا هو النظر بالله تعالى. والسمع بالله تعالى أن يسمع جميع ألفاظ الوجود في جميع العوالم واختلاف تسبيحها وأذكارها في الآن الواحد فلا تختلط عليه كثرة ألفاظها وتسبيحها كأنه في كل لفظ لا يسمع غيره. فإن أمر العامة في السماع لا يسمع إلا لفظا واحدا فإذا كثرت عليه الألفاظ عجز عن تمييزها. والسلك في هذه الحالة يسمع جميع ألفاظ الموجودات وتسبيحها فلا تختلط عليه. انتهى. من جواهر المعاني.

كلام شيخ الإسلام مولانا إبراهيم انياس في "التجلي الصوري"

فالتجلي الصوري ثلاثة مراتب؛ السفلي منها أول ما يترآ للمريد المشرف على الوصول يشاهد الوجود المجازي عين الوجود الحقيقي رأي التجلي في المرءاة، ولم سشاهد المرءاة ولا المتجلي فيها، والوسطى ما يشاهده العارفون بعد صحو وبقاء يشهدون الحق على صورة مستحيلة، قال ابن فارض:

وإياك والإعراض عن كل صورة　　　مموهـــة أو حـــالة مستحيلة

والعليا ما شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، رآه على صورة أمر، وأما الذات فهي الوجود المطلق الذي إذا ترقى المريد عن ذلك التجلي الصوري، ووصل إلى البطون الذاتي حيث لا مرآة ولا متجلي ولا متجلى له، وصل إليه، جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا. وذات الذات هي حضرة الحجاب الأعظم أم الفيض الروح الأكبر، ولسر الذات والوجود الثاني ووجود الوجود، ومدد الوجود ونور الوجود، والحقيقة المحمدية والأحدية، تجلي الذات لنفسها بنفسها لا نسبة فيه إلا هو الله أحد، والواحدية تجلي الذات للحقيقة المحدية، ومعرفة سر الظهور والبطون أن يعرف العبد أن الظهور هو البطون والبطون هو الظهور، وذلك بأن تعلم أن الظهور تظاهر فافهم جدا.

والأزل عبارة عما لم يزل قط، والأبد عبارة عما لا يزال عوض، والأزل هو الأبد والأبد هو الأزل، وهو حضرة بفاء سر الحضرات. وأما عالم الغيب فهي قسيم

الشهادة، ولعل تفسيرهما؛ أن يقع في بعض أجوبتك عند كلامي في عالم الخلق والأمر. والكون مظهر الألوهية، أي: المألوه في العالم المجازي محقه الوجود الحقيقي، أي؛ العبد.

الرب حق والعبـــــد حق   يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبد فالعبـــد ميت   أو قلت رب أنى يكـــلف

لكن الحق أن الرب ليس بعبد، والعبد ليس برب، وذلك الذي يصح أن يكون عبدا، هو الكون، والشوق حال محبة ووجد كتهالك يرد على قلب العبد من حضرة القهر الذاتي يسلبه عن جميع اختياراته، تارة في جناب الحق، وتارة في جناب مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتارة في شيخه، والماهية الهيولي، أي؛ الذات الساذج، وبحر العمى والطمس من حيث ما هي هي. والهوية: حضرة هو هو، وهو عند العارفين من أسماء الذات تفهم حضرتها من قوله تعالى: ذلك بأن الله هو الحق. والسكر ما يعتري المجذوب في حال غيبته عن الأكوان، وحضوره مع الحق. والمحبة تعلق القلب بالذات العلية شغفا بها لذاتها لا لغرض، ولا تكون إلا لكمل العارفين. جعلنا الله منهم بمنه. وهذا مختصر الجواب.

الخاتمة

ونختم هذا الحديث الشيق - والذي لا يرجى ختامه - بذكر كلام للختم التجاني رضي الله، وهو كلام لا تجده في الكتب، قال رضي الله عنه:

"دفعت من الحضرة الإلهية دفعة فصار أولي آخري، وآخري أولي، وكلي جزئي، وجزئي كلي، فصرت أنا هو وهو أنا من حيث هو لا من حيث أنا، وحينئذ لو سئلت عن ألف ألف مسألة لأجبت عنها بجواب واحد، إذ صرت كالمصباح".

وعلق شيخ الإسلام، مولانا الشيخ إبراهيم انياس رضي الله عنه على ذلك قائلا: "هذا الكلام هو سبب كوني أرضى به شيخا..."

أرضى أن يكون هو شيخي رضي الله عنه

ولا شك أن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عن علم من الأعلام، ولا غرو فقائله هو

عن عين الولاية رضي الله عنهم

العلم الأشهر، والقطب الأنور، والنجم الأزهر، فريد دهره، ووحيد عصره، العلامة الفهامة، مولانا شيخ الإسلام الحاج إبراهيم بن الحاج عبد الله التجاني رضي الله عنه. وأود أن أذكر لكم هنا مشهدا من مشاهد هذا القطب الهمام لنختم به هذا المقال، حتى يكون ختامه مسك. قال رضي الله عنه:

"وقعة وقعت للعبد الذليل كاتبه عام 1350 هجرية محمدية عليها الصلاة والسلام، وهي؛ أني مكثت مائة ألف سنة من أيام الرب وأنا أسمع الكلام الأزلي الأصفى مواجهة، فتحيرت واضطربت لما اجتمع عندي من اللذة والألم، فإذا أني اندفعت إلى حضرة أشاهد فيها حقيقة حقيقة حقيقة الحقيقة ذاتا بحتا وطمسا في عمى، و لم

يبق شعور بمحسوس، فمكثت في هذا مائتي ألف سنة، فإذا أني بشيء أي؛ وجود متميز عني كالظلال وكالدخان، فطلبت ذلك الوجود، فإذا أني برسول من الذات عبد الذات وسرها، وهو يقرب مني ويدنو مني حتى غبت فيه فصار عيني، فصرت أطرب لأني حبيب الذات وسرها وعبدها ومرادها ومرتبتها الجامعة المتجلى لها بكمال الذات. ومكثت في طربي ألف ألف سنة، فجلت في الغيب لم أجد للذات عبدا سواي، وجلت في غيب الغيب فشاهدت جلالا في جمال فإذا بحضرة غيب الغيب تدعوني وتسميني يا أحمد التجاني، فتيقنت أن لا مراد للحق بعد السر إلا أنا، وصاحبت عبد الذات ونصرته ووازرته ألفي ألف سنة فجعلني أبا البشر، ومدد جميع الكائنات، وسر الموجودات، وآدمْ الأرواح والأشباح. فحملت الأمانة، ونوديت يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض، فنظرت إلى الأرض فرأيتها على حالها، وإذا بالعوالم الحسية والمعنوية والملأ الأعلى والأسفل والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شيء خلقنا زوجين اثنين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين. فرجعت إلى حسي وإذا مدة الواقعة كما بين الشفع والوتر، فسبحان الله العظيم، يخص من شاء بما شاء، لا معقب لحكمه، ولا يسئل عما يفعل وهم يسألون. أ هـ

وبهذا أود أن أختم هذا الحديث الشيق، وأسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من أهل معرفته والفهم عنه، وأن يجعلنا من خواص الخواص، الفانين فيه إذا أفناهم، والباقين به إذا أبقاهم، وأن يحفظنا فيما غبنا عنه، وألا يكلنا إلى أنفسنا فيما حضرناه، كما

نسأله جل جلاله أن يحفظ هذه البلاد من ويلات الحروب، ومن كل نزاع وشقاق، وأن يؤلف بين قلوب شعبه، ويوحدهم على وطنية راسخة، تنبذ خلفها كل أسباب التفرق والتشرذم، وأن يعفو عمن قضوا في تلك الدوامة الدامية، إنه قريب مجيب الدعوات.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

جمعها راجي رضا ربه وعفوه وتوفيقه:

الإمام الشيخ التجاني سيسي

إمام المسجد الجامع بمدينة كولخ المحروسة

لعشر خلون من شوال عام 1432 هـ